من أنت؟

هانى فؤاد

Global Wave

مـن أنت؟

رحلة نحو البداية

هانى فؤاد

المؤلف : هانى فؤاد

الناشر : Global Wave

Copyright © 2013 by Global Wave

حقوق الطبع محفوظة للناشر و لا يجوز استخدام
او اقتباس او إعادة نشر اى جزء من الكتيب
بدون إذن من الناشر

فتحت عينى من النوم لكن لم اجد نفسى فى الفراش و لا فى غرفة النوم، او حتى فى دارى، انا فى مكان لم اراه من قبل. حولى اشجار غريبة، الوانها بين الاخضر والابيض، أنا فى حديقة او هكذا تبدو لى، انا نائم على الارض فوق شئ له ملمس العشب ولكن لونه ابيض، "اين انا؟ ما هذا المكان؟" تسألت متعجباً. نهضت و مشيت نحو المبنى الوحيد امامى، المكون من طابق واحد على شكل دائرة من الأعمدة البيضاء وحوائطه، ما بين الاعمدة، كلها من زجاج اخضر داكن عاكس للصوره فلم يمكنى رؤية ما فى داخل المبنى. لا يوجد حولى احد، لا اصوات لا طيور لا سيارات ، سكون عميق، لم اتصور انه يوجد شئ مثله، حتى اكاد ان اسمع صوت افكارى الداخلية. باب المبنى من زجاج ابيض سميك انفتح من تلقاء نفسه عندما اقتربت اليه. اغلق الباب خلفى بدون صوت. المبنى من الداخل متسع، لا توجد حوائط ، بل صالة واحدة ارضيتها مغطاة ببساط ابيض سميك كأنة فراء دب قطبى غاصت فيه

اقدامى حتى لم اراها الى ما فوق الكاحل. الصالة الدائرية تشبه حجرة مكتب ضخمة، كل شئ بها ابيض، الحوائط، السقف الارائك الوسائد الكراسى قطع الاثاث الانيقة المتناثرة، حتى الزجاج الذى بدا لونه اخضر من الخارج كان لونه ابيض شفاف. فى مركز دائرة الغرفة كان يوجهنى مكتب كبير على شكل نصف دائرة فوقه شاشة الكومبيوتر. لكنها كانت شاشة عجيبة لم ارى شئ مثلها من قبل. فلم تكن مسطحة بل مقوسة ، مثل المكتب، على شكل نصف دائرة ارتفاعها حوالى متر، تخيلت انه إذا جلست على المكتب، سيحيط بى قوس الشاشة ليحتوينى بين طرفيه. مشيت نحو المكتب الضخم و انا اتأمل خلفية شاشة الكومبيوتر العملاقة. درت حول المكتب لأرها

- "من انت؟"

تجمدت من المفاجأة، كان المتكلم رجل جالس على كرسى وثير من الجلد الابيض، اخفته عنى شاشة الكومبيوتر فلم اراه عندما دخلت الحجرة. كان يرتدى بدلة بيضاء

وقميص ابيض و رابطة عنق بيضاء شعره ابيض و له لحية قصيرة، مقصوصة بعناية فائقة، كذلك كانت بيضاء على الرغم من انه كان يبدو شاباً فى مقتبل العمر.

- "من انت؟" سأل مكررا

- "انا..." لم اعرف ماذا اقول، حاولت ان اجد الكلمات وانا اكرر "انا...انا...." لم اعرف ماذا يحدث لى، كأنى احاول ان اتذكر اسم فيلم رأيته عدة مرات و اعرف احداثه و ابطاله جيدا لكنى لا اذكر اسم الفيلم ولا اسماء الممثلين.

- "آه ، اذن انت هنا لتعرف من انت" قال هذا بدون ان ينظر نحوى وهو يكتب على لوحة حروف بيضاء تعمل باللمس فلا تصدر الازرار صوت عند الكتابة، مصممة بحيث تكون جزء من سطح المكتب

- "انا اعرف من انا" قلت معترضا، بنوع من الضيق من نبرة الثقة الزائدة فى صوته

- "حقا؟" قالها بلهجة لا تخلو من بعض التهكم لم ارتاح لها "اذن، من انت؟"

- " انا لا اعرفك لماذا تسألنى و لماذا اخبرك عن نفسى؟" قلت و انا احاول جاهدا ان اجد اسم الفيلم فى افكارى.

- " انت الذى اتيت الى هنا ، الى دارى، فى حجرتى، انا لم اذهب اليك و مع ذلك تتعجب انى سألتك" قال وهو مستمر فى الكتابة دون ان ينظر الىّ

- " انا لم آتِ الى هنا" قلت مدافعا، ثم استدركت بعد ان اكتشفت غباوة ما اقول " اقصد انا لا اعرف كيف اتيت هنا، ولا اعرف ماهذا المكان اصلا حتى آتى اليه" قلت ومازالت افكارى تلهث راكضة للتذكر

- "شئ غريب، من يسمعك لا يصدق انك من سنتين لا تفكر الا فى المجئ هنا، بل فعلت المستحيل لتأتى" قال دون ان يلتفت و هو ينحنى ليدقق النظر فى شئ على الشاشة

كنت على وشك ان افتح فمى لأرد على ادعائه الخاطئ لكن ومض شئ فى ذاكرتى، انا فعلا اشعر انى اعرف هذا المكان. شعورى بالراحة والاسترخاء عندما كنت فى

الحديقة و توجهى نحو المبنى بلا تردد، دخولى و اتجاهى نحو المكتب مباشرة، كل هذه بدت لى وكأنها خطوات طبيعية و تلقائية. شعرت كأنى ذاهب لإستلام اوراق هامة من جهة حكومية معروفة. مشكلتى انى لا اعرف ماهى الاوراق التى اريدها ولا ولا مكوناتها. رغما عن ذلك اشعر ان عندى هنا شئ يجب ان اعمله، او احصل عليه، و لن اخرج قبل ان أُتممه. لكن ماهو هذا الشئ؟ لا اعرف.

- " آسف على الدخول بلا استئذان، لكن انا مرتبك بعض الشئ و لا اعرف ان اجيب على الاسئلة التى تدور فى ذهنى. ارجوك اعذرنى. الحقيقة انى لا اعرف اين انا و لا كيف وصلت هنا "

- " انت جئت روحيا " قال الرجل و هو يلتفت منهيا عمله على الكومبيوتر

- " ماذا تقصد؟ هل هذا حلم؟ "

- " لا "

- " ما معنى هذا، هل.. هل .. " توقفت عن اكمال السؤال

بشفتى لكنه كان يدوى فى ذهنى وانا اسأل نفسى ".. هل انا ميت؟ " شعرت بقشعريرة باردة فى كل جسمى تجمدت معها حتى افكارى

- " لا، لم تمت" قالها وهو يبتسم لأول مرة، فجأنى رده، لأنى لم اتكلم، وكأنه سمع صوت افكارى

- " اذن ما معنى كلامك ان روحى طلعت و.."

- " انا لم اقل ان روحك فارقت جسمك، كل ما قصدته هو ان بحثك الروحى هو الذى اتى بك الى هنا"

- " انا لا اذكر ان عملت اى بحث روحى، انا لا اعرف اصلا معنى كلمة بحث روحى" قلت و انا انظر بتشكك للرجل

- "هل حقيقى ما تقول، اذن ما معنى ما بدأته من سنتين؟ "

- " انا لا اذكر انى بدأت اى شئ من سنتين، ولا اذكر انى فعلت اى شئ خلال السنتين الماضيتن، او على الاقل لم اعمل اى شئ له قيمة" قلت وقد بدأ صبرى ينفذ، لكن فى نفس الوقت لاحظت انه بدأت ذكريات و صور و مواقف

تتدافع كالشلال فى ذاكرتى لتجرفنى امامها بدون ان استطيع السيطرة عليها او ترتيبها لتصنع قصة ذات معنى.

- " لكن الموجود هنا امامى يحكى شئ مختلف" قال هذا وهو يشير الى شاشة الكومبيوتر مقاطعا شلال الذكريات

- " ماذا تقصد؟ "

- " انظر بنفسك " قال وهو ينهض من على الكرسى ويشير الىّ لأجلس مكانه " اقترب من فضلك اكثر من الشاشة لتضع نفسك بين طرفى قوسها"

- اقتربت لأضع وجهى بين طرفى الشاشة وانا اتفحصها من يمينى الى يسارى. بمجرد ان دخلت بين الطرفين لم اجد نفسى فى الصالة، بل فى بيتنا، لم اصدق نفسى. انا فعلا اتطلع على منظر فى بيتنا، كأنى انظر من نافذة غير مرئية فى الحائط او زاوية السقف، اطل على صالة بيتنا الضيقة المزدحمة بالعديد من قطع الاثاث الغير متناسقة. كم اكره هذا المكان الضيق والمزدحم، باشياء لامعنى لها، وبالعديد من الاشخاص. سبعة اشخاص يعيشون فى هذا

المكان، ابوايا و اخين واختين فى ثلاثة غرف مساحتها اقل من سبعين متر مربع. اخى الاصغر ينام فى الصالة لأن لامكان له فى الغرف، ومع ذلك امى تعتبرنا محظوطين وتخاف من حسد الجيران. عبرت اختى الكبرى الصالة مهرولة من الحمام الى غرفتها وهى تضم على جسمها الضخم عدد من المناشف فى محاولة ان تصل الى غرفتها قبل ان يراها احد الذكور فى البيت، ابتسمت بضيق للفكرة. ثم ها انا اخرج من غرفتنا، احمل اوراق الزينة التى صممتها ورسمتها بنفسى، ثم بدأت فى تعليقها على الحائط. نعم، اذكر هذا اليوم، يوم عيد ميلادى الثامن عشر. اومأت برأسى و انا امط شفتى متضايقا. ثم ها هو ابى يخرج من غرفته

- " ماذا تعمل؟ " قال و انا اسمع مبادئ التهكم فى صوته

- " اضع بعض الزينة احتفالا بعيد ميلادى" قلت و انا احاول ان اجعل صوتى مرحاً بقدر الامكان

- " عيد ميلاد؟ منذ متى و نحن نحتفل بأعياد ميلاد؟ فى

هذا المنزل اذا بدأنا فسنقضى السنة كلها اعياد ميلاد. انزل من عندك و كف عن هذا "

- " اكف عن ماذا؟ لماذا لا نظهر بعض الاهتمام و التقدير لبعض، لماذا لـ... "

- " بالله عليك كف عن هذه الفلسفات الفارغة التى تتعلمها فى مدارسهم، لسنا مثلهم" قال و قد بدأ صوته يعلو

- " ليس لهذا علاقة بالمدرسة، المدرسة انتهت ولا اذهب اليها بعد. انا اتكلم عن شئ آخر، عن اهتمامنا ببعض وعن..."

- " اذا كنت مهتما بنا اذهب لتجد لنفسك عملا لتساعدنا، او على الاقل تخفف من عبئك علينا، بدلا من تضييع وقتك فى اعياد الميلاد. لماذا لا تجد عمل مثل أخاك" قاطعنى مرة اخرى و قد بدأ يتحول صوته الى صياح اجتذب امى واخوتى "حتى اختك التى كنا نظن انها لا تفهم فى شئ وجدت عمل فى مستشفى و تربح اكثر من اخيك" قال و هو يشير نحو اختى الواقفة بشعرها القصير المبتل حول

وجهها الغليظ و التى لم تعرف كيف يجب ان يكون رد فعلها هل تعتبر كلامه مدح ام إهانة.

- " لماذا كل كلامنا صياح؟ دائما المعايرة بالتقصير والفشل اول شئ نتكلم عنه. انا لا اعرف ما هو نوع العمل المناسب لى مازلت احاول ان اعرف ما الذى اريده و..."

- " كم الوقت الذى تحتاجه لتعرف؟ سنة ، اثنين، عشرة؟ ليس لدينا امتياز تضيع الوقت فى الانتظار لتعرف يا فيلسوف العصر" قاطعنى مرة اخرى بحدة، فبدأت اشعر بالغضب يصعد الى رأسى

- " قبل ان تنصحنى، لماذا تتناسى الواقع، انت نفسك لم تستطيع ان تجد عمل من شهور وتعرف جيدا ان.." ظهر على وجهه انه فوجئ بقولى، لم يتوقع ان احد من الدار سيذكره بفشله فى العثور على عمل. قبل ان انهى الجملة خطى نحوى ولطمنى على وجهى فكدت اسقط لولا انى استندت على احد الكراسى. صرخت امى واختى و تدخل اخى الاكبر بيننا ليحجز ابى عنى

- " لا تضربنى، ليس هذا من حقك، لست طفلا" قلت وقد تشنج كل جسمى و انا اخطو نحوه بعصبية، تمكن ابى من تحرير ذراعه من اخى و لطمنى على وجهى مرة اخرى، تعالى صياح امى و بدأت تجذبنى لتبعدنى عنه وبدأ هو فى دفع اخى بعنف ليحرر نفسه ليصل الىّ. لم يتكلم لكن وجهه كان يعكس جنون اللحظة.

- " اخرج، اخرج من الدار الآن" قالت امى وهى تجذبنى نحو الباب

اندفعت اجرى للخارج، الجار العجوز الساكن امامنا كان واقفا على السلم، هو و زوجته، وجهه الابيض محتقنا بالاحمرار والاحتقار

- "الا تكفون عن هذا الجنون، لا يمر يوم بلا صياح، سأطلب الشرطة، سأطلب لكم الشرطة، هل تسمع" لاحقتنى كلماته مختلطة بصياح ابى و سبابه و انا اجرى على السلم المظلم و الذى يزداد ظلاما كلما هبطت الى اسفل حتى احسست كأنى اهبط الى بئر بلا قرار.

رجعت برأسى للخلف، خارج قوس الشاشة، فعدت الى سكون الغرفة البيضاء. التضاد بين ظلام السلم و الحوائط البيضاء، وبين الصياح فى بيتنا و سكون الغرفة حولى كان هائلا، لدرجة ان دقات قلبى بدت مسموعة كالطبل، وجسمى كلة كان ينتفض من الانفعال. قدم لى الرجل كأس ماء ضخمة، اخذتها لاشرب بيد مرتعشة دون ان اشكره. اغمضت عينىّ وانا اشرب الماء فى جرعات كبيرة، فى محاوله لإبتلاع نظرات الاحتقار على وجهى ابى و الجار العجوز مع كل جرعة ماء.

- " كنت اريد ان اضيف شئ له معنى فى حياة عائلتنا، كنت اتمنى ان نذكر بعضنا فى لحظات دافئة " قلت شارحاً بلهجة مليئة بالأسف وانا امسح بقايا الماء المتساقطة من ذقنى

- " انا متفهم، لست بحاجة للشرح. انت فنان، و كنت تحاول ان ترسم عالمك، لكن صور الحياة لا تخضع للإبداع بسهولة مثل الصور المرسومة على اللوحات"

ترددت كلمة "انت فنان" فى داخلى بصدى للصوت. كان لها تأثير مريح على نفسى اردت معه ان لا ينقطع الصدى والتكرار الى الآبد. لكن مع الاسف بدأ يخفت الى ان زال بعد لحظات. شعرت بنوع من التفهم من الرجل الواقف امامى، والذى بدا مرة اخرى كأنه يقرأ ما يحدث داخلى فبقى منتظرا الى ان انتهى الصدى ثم قال "لا يمكن ان ترسم صورة لإنسان بلا خلفية تحيط به و إلا ستكون الصورة ناقصه، واضح انك اردت ان ترسم حياتك، لكن غير واضح ما هى الخلفية التى ستضع نفسك فى وسطها. هل هى خلفية عائلتك ام هى خلفية المجتمع الجديد؟"

- "كيف عرفت هذا؟" سألته متعجبا، وانا اكاد اجزم انى امام عراف يقرأ الافكار

- "الشئ الاصعب هو انك لم تكن راضياً على اى من الخلفيتين، كل منهما لم تعجبك تماما. كنت تريد صنع مزيج منهما يناسبك انت وحدك"

- "هذا كلام غير دقيق" بادرت بالإنكار، لكن تعجُبى من

- "إذن بماذا تفسر ما حدث فى ذلك اليوم؟ انظر بنفسك" قال و هو يشير نحو الشاشة. فهمت انه يدعونى لمشاهدة منظر آخر. عدت اقترب بوجهى داخل نصف الدائرة، ببطء و تردد كأنه ستخرج اسنان للشاشة لتعضنى بها، فلم اعرف ما الذى سأراه هذه المرة. وفوجئت بما يحدث.

هذه المرة كنت خارج الدار، ليس فى الهواء الطلق فقط، بل كنت اطير فى الهواء مثل العصفور. كنت اعشق حرية هذا الطائر الصغير واتمنى ان اكون مثله، وها أنا اعيش لحظة تحقيق احد احلامى المستحيلة، ربما اكثرهم استحالة. كنت احوم فى سماء الميدان الرئيسى للبلدة التى اعيش فيها على انغام موسيقية اعرفها جيدا، موسيقى الاحتفالات السنوية بالإسبوع المقدس. كلما اقتربت من الميدان ارتفعت اصوات الموسيقى وازداد وضوح الوان الزينات والملابس الملونة للمحتفلين. كنت احلق وانا مأخوذ بهذة اللحظة السحرية. هبطت بنفس سلاسة

العصفور، كأنى تعودت الطيران كل ايام حياتى. وقفت على احد الارائك الحجرية التى تتوسط الميدان، كما تعودت، لاشاهد المنظر الذى طلما سحر خيالى من صغرى. كان الاحتفال فى ذروته، حيث يمر موكب التماثيل الضخمة التى تمثل قصة الآم المسيح فى آخر ايام فى حياته. كل تمثال كان مثبت على قاعدة ضخمة تسمح بحمله من جانبيها على اكتاف المحتفلين. الذين يحملون التماثيل كانوا يرتدون ملابس ذات الوان براقة تعكس الاضواء عليها. التماثيل كذلك كانت ملونة بالوان زاهية فوق قواعدها الذهبية، بينما غطى الذين يحملون التماثيل وجوههم بأقنعة ملونة على شكل اقماع طويلة. المنظر بدا كأنه يخرج من احدى لوحات العصور الوسطى التى شاهدتها عندما زرت متحف الفنون مع المدرسة. كنت مُتيما بهذه التقاليد الفنية التى تجعل الانسان يشعر انه ينفصل عن العالم ليعيش داخل لوحة فنية تنصهر فيها الالوان والتكوينات والموسيقى معا لتصنع جوا ساحرا.

الشئ الوحيد الذى كان يضايقنى هو خلط هذه الاحتفالات بالدين. لم تستقم لدىّ فكرة تماشى الصخب المصاحب لهذه الاحتفالية، من الشرب و الرقص، مع اى معنى دينى. رغم ان الموكب و الموسيقى كان بهما وقار، لكنى كنت احس انه وقار مصطنع، خاصة من ذلك الرجل الذى كان يقود الموكب، من الواضح انه كان صاحب رتبة دينية، لأنه كان يحمل صولجانا ضخما ينتهى بصليب يشير به نحو الناس المتجمعة على جانبى الطريق بتكلف واضح للقداسة. لاحظت انه من حين لآخر كان يلتفت الى الذين يحملون التمثال الضخم من خلفه ليستحثهم على الاسراع باللحاق به، يزجرهم بنظراته و ملامح وجهه تعكس ضيقا واضحا منهم، ثم يستدير لمواجهة الناس وفى الحال يغيير ملامحه ، طابعا ابتسامة مُفتعلة على وجهه، موزعا البركات على الجمع يمينا و يسارا وهو يومئ برأسة بوقار شديد التصنع. لم اتمالك نفسى من الضحك بصوت عالى عندما لاحظت تصرفات الرجل المتكلفة، و كيف يغيير

تعبيرات وجهه من الضيق ليتصنع البشاشة فى لحظة. سمعت من خلفى ضحكات ففهمت ان تناقض تصرفات الرجل لفت انتباه آخرين ايضا، لكن عندما التفت وجدت مجموعة من سكان الحى يعطون ظهرهم للموكب، ومن الواضح انهم كانوا يضحكون على شئ فى الطرف الاخر من الميدان. تحركت من مكانى لأرى ما يضحكون عليه، شعرت بهزة فى قلبى عندما وجدت ان ما يتطلعون نحوه كان مجموعة من الشباب من بلادى، وقد اصطفوا للصلاة بملابسهم الدينية التقليدية البيضاء، بما فى ذلك القبعات الصغيرة. كنت اعرف هذه المجموعة، فقد تربيت بينهم ومعظمهم فى سنى تقريبا. كنت اتعجب وانا اراهم يتحولون واحدا بعد الآخر الى متشددين فى تدينهم بصورة لم نعهدها فى عائلاتنا. فى هذه اللحظة كنت اعلم انهم يحاولون توصيل رسالة الى اهل الحى محتواها "اننا هنا، واننا نعمل تعليم الدين الصحيح، وليس ما تعملوه انتم". افهمهم جيدا، فهم يظنون انهم بما يعملونه يقدمون صورة

لشجاعتهم فى اظهار الحق، وان هذا الحق سيبدوا بصورة واضحة، ويظنون ان هذه الصورة ستبهر الناس وتكسب احترامهم. لكن فى هذه اللحظة شعرت انهم فى منتهى الغرابة، وكأنى اراهم لأول مرة، لأنى كنت اراهم بعيون اهل الحى المتجمعين فى الميدان. ضايقتنى ضحكات الناس عليهم، وازداد ضيقى وانا ارى ان عدد من المشاهدين اسرع باستعمال كاميرات التليفونات المحمولة ليلتقطوا صورهم وهم يركعون لتلمس وجوههم الارض، بل تجرأ بعضهم ليستعمل كلمات بذيئة فى سخريته منهم. ثم أخذ ضيقى يتحول لينصب على مجموعة الشباب من بلادى، لماذا اختاروا هذا اليوم دون غيره للصلاة فى الشارع؟ مكان الصلاة مفتوح لهم كل يوم. شعرت ان الضيق يحاصرنى من كل جانب، سواء من المبالغة فى اظهار واستعراض التدين من الشباب من بلدى، او من جهل اهل الحى الغير مقدرين لغيرهم، وسخريتهم من الاجانب. و لكن اكثر ما ضايقنى هو انى لم استطع ان

الومهم لانه صنعت مثلهم تماما عندما ضحكت على رجل الدين الذى كان يتقدم الموكب. تحول الضيق الى احساس بالاحباط، لم اعد اسمع الموسيقى او ارى الالوان، وبدلا من الجناحين شعرت ان على كتفىّ اثقال غير مرئية احنت ظهرى حتى كادت تقصمه.

اخرجت وجهى من الشاشة لأعود الى الحجرة، هذه المرة لم أكن منفعلا مثل المرة السابقة، لكنى كنت اشد احباطا. وفجأة تذكرت ان هذا الاحباط ليس غريبا علىّ، فمشاعر الاحباط نفسها كانت تصاحبنى طوال السنتين الماضيتين. نفس المواقف تعاد مرارا وتكرارا، رغم اختلافها، وتنتهى بى الى نفس الاحساس. كأن الحياة تسير فى دوائر لتعود الى نفس النقطة. منذ ان انهيت المدرسة، صارت الحياة سلسلة من الاحداث الغير محتملة و المضايقات، ويتضاعف الضيق فى كل مرة عندما اجد انى غير قادر على عمل شئ، او تغيير اى شئ، او حتى الهروب بتجاهل ما يحدث. كثيرا ما كنت اشعر ان الحياة صارت

كالرمال المتحركة تحت قدميّ، كلما حاولت ان اتحرك لاخرج منها غصت فيها اكثر. تذكرت ليالى طويلة بلا نوم فوق السرير ذو الطابقين، شخير اخى المتعب من السرير تحتى، وسقف الغرفة المنخفض الذى يكاد يطبق على صدرى. لم اشعر ابدا ان هذا المكان دارى، طوال عمرى كان لدى الاحساس ان هذا مكان مؤقت و سيأتى اليوم الذى سأخرج فية الى دار اوسع، اكثر رحابة و تهوية، دار بها نوافذ واسعة تطل على حديقة، ليست مثل النافذة الصغيرة التى فى غرفتى و التى تذكرنى قضبانها بالسجون. كنت اشعر ان استقرارى سيكون فى مكان آخر لم اعرف كيف اصفه. ربما... ربما كان يشبه ... يشبه هذا المكان ... هذا البيت وهذه النوافذ .... وهذه الحديقة ... اضاءت الفكرة ذهنى بطريقة مفاجئة لم اعرف كيف اتعامل معها، لكنى لم اكن مرتبكا. التفت ابحث عن الرجل، فوجدته جالسا على احد المقاعد الوثيرة، ناظرا نحوى بإبتسامة متحدية كأنه يقول "مارأيك؟"

- "معك حق، انا شخص لا يعجبه شئ. لم يعجبنى من اين اتيت، ولا اين اعيش، و لا اعرف الى اين يجب ان اذهب"

- "اعتقد انك مخطئ مرة اخرى. انت انسان صادق جدا مع نفسك، وعندك قدرة نادرة على قبول الحقائق، حتى المؤلم منها، وهذا ما آتى بك الى هنا. لكنك قاسى جدا فى احكامك على الحياة، وحتى على نفسك. برغم انك تحب الحياة وعندك القدرة على الاعجاب بالناس و تقديرهم، لكنك لا تحتمل تفاهاتهم، او على الاقل ما يبدو لك من تصرفاتهم انه تفاهات"

عاد الصوت و الصدى يرن فى رأسى مرة اخرى مع كلماته " انت انسان صادق جدا مع نفسك" وجدتنى افكر انه لم اجد انسان يفهمنى الى هذا الحد، ربما باستثناء معلمة الرسم فى المدرسة. لكن هذا الرجل كان يفهمنى بصورة اعمق منها. كذلك ما قاله صحيح عن "الاعجاب بالناس" انا فعلا كنت مُعجب بكفاح أبى وأمى، كنت احب

اختى التى لم يستطيع احد ان يرى ان جمالها فى حنانها وليس فى ملامح وجهها. كنت منبهرا بفنون البلد الذى اعيش فيه. ولكن موجات الاحباط وفيضان الاحزان جرفت كل هذه الاحاسيس، فلم يظهر منى إلا شاب مرتبك، متقلب المزاج.

- "لماذا تعاملنى الحياة بهذه القسوة؟ انا لم اطلب الكثير. كل ما اردته هو ان اعيش ما احب وأن اعمل شئ له معنى. اردت ان اكون سبب فى بعض التغيير الذى يجعل الحياة لها مذاق افضل لكل من حولى. لكن يبدو انه لا يوجد من يحب هذا النوع من الحياة. يبدو انى انسان حالم، او اعيش فى الوهم بدرجة زائدة"

- "بالعكس، انت على الطريق الصحيح. كل ما فى الموضوع انك استسلمت، واسترسلت فى احكامك القاسية، والاخطر انك تسرعت فى قراراتك وتصرفاتك، فلم تسمع لمن يحبوك، ولم تعطى فرصة لمن يهتموا بك ان يساعدوك "

الكلمات كانت غريبة على اذنى "لم تسمع لمن **يحبوك**، ولم تعطى فرصة لمن **يهتموا** بك" كنت اقرأ عن الحب والاهتمام بمن تحب. مثل اى شاب تمنيت ان اعيش الحب و ان اجد فتاة احبها، لكنى لم يخطر فى بالى ابدا انى محبوب و ان هناك من يهتم بى. حاولت ان اتخيل الاحساس وان اشعر به فى داخلى، فكانت مفاجأة بالنسبة لى انى لم استطع تخيله. نعم، لم استطيع ان اتخيل كيف يمكن ان تكون مشاعرى او شكل حياتى إذا كنت محبوب او انى موضوع اهتمام من اى شخص. هالتنى المفاجأة بقسوة.

- "كنت اظن انك تفهمنى، لكنى لم اعد متأكدا من ذلك" قلت بلهجة لا تخلو من الاحباط

- "انت لا تقتنع بسهولة، القى نظرة اخرى لتفهم ما اقصد" قال بابتسامته المتحدية و هو يشير الى الشاشة و يتراجع ليجلس على الكرسى الوثير مرة اخرى كأنه يعتقد انى سأستغرق بعض الوقت هذه المرة. تنفست بعمق وقربت

وجهى من الشاشة و انا ادعو فى قلبى،لأول مرة، ان يكون صادقا و ان اكون مخطئاً، و اكتشف ان هناك من يحبنى فعلا.

هذه المرة شاهدتنى واقفا امام مبنى ضخم فى ميدان متسع مزدحم بالسيارات التى تسير ببطء عصبى، فى محاولة للإسراع بلا جدوى. الناس تسير على الرصيف حولى بسرعة تفوق سرعة السيارات. كانت ساعة الذهاب الى العمل فى العاصمة. لم اكن من محبى الذهاب الى المدينة الكبيرة، لذلك كنت متوتر بعض الشئ رغم تظاهرى باللامبالاة و الهدوء. لكن توترى كان يزداد كلما فكرت فى الاحتفال الذى ساذهب اليه. اليوم كان الاعلان عن نتيجة المسابقة السنوية فى التصميم الفنى للشباب. حضرت العام الماضى كمتفرج، لكن اليوم كنت من المتسابقين. لم احلم ان اصل حتى الى اعتاب المشاركة، لكن تشجيع معلمة الفنون والرسم فى المدرسة دفعنى لا للمشاركة فقط بل جعلنى اصل الى تخيل لحظات الفوز.

عشت فى خيالات هذا الحلم مرارا و تكرارا ايام طويلة، واعددت تفاصيل هذا الفيديو الداخلى حتى كاد ان يكون جزء من عادات الحياة اليومية. فكنت اتصور كيف سيكون رد فعلى عند سماع اسمى بين الفائزين، كيف سأظهر دهشتى كأنى لم اتوقع الفوز، و كيف سأخرج، بتواضع وثقة، من بين الصفوف و انا اسمع التصفيق، ولحظة تسلم الجائزة، و... سمعت صوت يناديني، افقت من تخيلاتى لأجد معلمة الرسم تلوح بيدها وهى تخرج من السيارة وتودع زوجها بسرعة حتى لا تعطل المرور العصبى. كنت انتظرها للدخول الى صالة المسابقة.

- "آسفة جدا على التأخير، الازدحام سئ جدا اليوم وتعطلنا مدة طويلة" قالت و هى تشدنى من ذراعى لنسرع بالدخول

- "لم تتأخرى إلا دقائق معدودة، لا تهتمى" قلت و انا لا اصدق انها تعتذر عن تأخير لمدة خمسة دقائق فقط

- "انا تكلمت مع الراعى الرئيسى للمسابقة، هو مدير

شركة كبيرة للتصميم و الدعاية، و يعرف زوجى من سنين طويلة. مبدئيا هو مُعجب باعمالك، لكن يجب الانتظار حتى ظهور نتيجة المسابقة. كما تعلم الشركات الراعية تقدم الجوائز، واحيانا تعرض فرص العمل على بعض الفائزين، لكن ليس لهم اى تدخل فى الحكم الفنى فهذا متروك للجنة التحكيم"

- "هذا ابعد من تخيالتى، انا صغير جدا بالنسبة لباقى المتسابقين و ليس لدى خبرة عمل سابقة" قلت بمنطقية كاذبة، وانا اتصنع ابتسامة لامبالاة. لكن عندما سمعت ان هناك فرصة عمل فى المجال الفنى اخذ قلبى يدق بشدة وانا اتمنى ان تحدث المعجزة واحصل على هذا العمل. لم احلم ان تتطور الامور الى هذا الحد بهذه السرعة. سيكون هذا هو الانتصار الاعظم فى حياتى، جائزة المسابقة والحصول على عمل فى يوم واحد. ساثبت لعائلتى وللجميع ان موهبتى و قدراتى و افكارى حقيقية وانى لم اضيع وقتى فى اللعب بالألون، كما كانوا يقولون عندما

يسخروا منى. ارتعشت يدىّ رغم عنى و شعرت ان العرق البارد يبللهما، فوضعتهما فى جيبى حتى لا تراهما المعلمة.

دخلنا الى صالة الاحتفال، كانوا على وشك البداية، أُطفئت الانوار بمجرد دخولنا وسلطوها على المسرح الذى تشغله طاولة كبيرة جلس عليه اعضاء لجنة التحكيم و بعض كبار المدعوين. المتسابقين وعائلاتهم او اصدقائهم كانوا موزعين فى مجموعات متناثرة فى المسرح. جلست مع المعلمة فى احد الصفوف الاخيرة وحدنا. بعد تقديم قصير من رئيس لجنة التحكيم، بدأ الاحتفال بعرض فيلم على شاشة ضخمة، لم يُعرض شئ مثل هذا فى برنامج العام الماضى. الفيلم كان يحوى سجلاً لتاريخ المسابقة والتصميمات الفائزة فى سنين سابقة، صاحبتها موسيقى مؤثرة. شعرت انى اغوص فى مقعدى حتى كاد ان يبتلعنى وانا اشاهد الفيلم، الاعمال المعروضة كانت هائلة، وذات مستوى مرتفع جدا. بعض الفائزين فى سنين سابقة

صاروا حاليا اهم الفنانين المعاصرين ومن اشهر الاسماء فى عالم الفن. انتهى الفيلم بتصفيق حاد من الحاضرين، شاركتهم بطريقة آلية. صعد رئيس اللجنة مرة اخرى وبدأ يصف الاعمال المقدمة للعام الحالى، و كيف كانت مهمة اللجنة شاقة فى اختيار الفائزين نظرا لارتفاع المستوى و تقاربه بين المتنافسين. مع كل كلمة من كلامة لا ادرى لماذا كنت اشعر بمزيد من البرودة تمتد فى كل جسمى.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة، إعلان اسماء الفائزين. بدأ بالفائز الثالث، كانت فتاة، اعرفها من بعيد ولم تكن تعجبنى بسبب طريقتها المندفعة فى الكلام و التحدى للآخرين. بمجرد سماع اسمها قفزت صارخة صرخات قصيرة متوالية، وهى ترفع يديها و تهز شعرها وتثنى وسطها يمينا و يسارا، بطريقة اثارت ضحك كل الحاضرين و تصفيقهم لما بدا لهم كأنه عفوية و انطلاق، لكنها بدت لى سطحية لا تستحق كل ذلك الاعجاب. الجائزة الثانية كانت لفتاة كذلك، مرت بهدؤ و بسرعة

لاستلام الجائزة و عادت لمقعدها بنفس السرعة. ثم بدأ رئيس اللجنة فاصلا من اثارة الفضول ورفع درجة الانفعال قبل ان يُعلن اسم الفائز الاول. كنت اسمع صوت تنفسى بصوت عالى وقد تشنجت اصابعى وهى تقبض على مسند الكرسى الذى اجلس عليه. ثم ذكر اسم الفائز...، كانت فتاة تدرس فى جامعة فنية مشهورة فى العاصمة، لفتت اعمالها نظرى فى معرض المسابقة وتبادلت بعض الحديث معها. هذه المرة لم تصرخ وحدها بل هى وكل عائلتها واصدقائها الذين قفزوا معا كما لو كانوا يشاهدونها تسجل هدفا فى مباراة كرة قدم، التفوا حولها ليهنئوها و هى تبكى. لم اشعر بنفسى وانا انسحب من الصالة تلاحقنى تصفيقات المشاركين و كأنها صفعات متتالية و انا اهرب منها.

ادرت وجهى للناحية الاخرى من الشاشة لأتجنب المنظر، فرأيتنى فى دارنا. كنت مستلقى على السرير فى غرفتى. بجانبى كان هاتفى المحمول، على شاشته اكثر من عشرين

رسالة تُسجل محاولات معلمة الرسم فى الوصول الىّ خلال الثمانية واربعين ساعة الماضية. لم انام ولا لحظة واحدة ومع ذلك لا اذكر انى كنت مستيقظا تماما عندما دخل اخى و امى الغرفة ليطمئنا علىّ. لم يقولا كلمة مواساة واحدة، لكن نظراتهما قالت لى "الم نحذرك من الاحلام". كنت اسمع همسات فى الصالة يعلو بعدها صوت ابى، ثم همسات اخرى تطلب منه ان يخفض صوته. كان غاضبا لكنه لم يقل كلمات جارحة ولم يدخل غرفتنا، وشكرت الله على ذلك.

فى نهاية اليوم الثانى دخلت اختى الكبرى، احتضنت رأسى و اخذت تربت على كتفى، انسابت دموعى التى حبستها طوال الساعات السابقة. بكت معى بدون صوت.

- "لا يمكنك الاستمرار هكذا، يجب ان تخرج، أو أن تأكل على الاقل"

- "ليس لدى شهية لأى شئ، انا حتى لا استطيع ان انام"

- "انا اعرف، لذلك احضرت لك من المستشفى دواء

يساعد على النوم، لكن يجب ان تأكل شئ قبلها" قالت وهى تناولنى قطعة من الحلوى التى تعرف انى احبها وشريط يحوى عدد من الاقراص

- "بعد الاكل خذ قرصا واحدا فقط، سيساعدك على النوم و غدا ستكون احسن"

بعد القرص مرت ساعات ولم انام، مازالت الافكار تلاحقنى. مشاعر الخجل و الهزيمة تجلدنى بلا رحمة. مرة اتخيل نفسى اصرخ فى وجه معلمة الرسم التى اعطتنى املا كاذبا، واحملها مسؤلية ما يحدث لى الآن. ومرة اقف امام لجنة التحكيم لاشرح لهم غبائهم فى اختيار الفائزات الثلاثة، خاصة صاحبة الجائزة الثالثة التى تصلح مهرجة فى السيرك و ليست فنانة محترمة. ثم تصفعنى افكار ساخرة ارى فيها ابى وهو يقول "حتى المُهرجة هزمتك، قلت لك اننا لسنا مثلهم". ثم اتخيل نفسى هاربا الى بلد بعيد لايعرفنى فيه احد، لكنى انتبه للواقع، وانى لا املك حتى ثمن تذكرة السفر لأهرب لهذا البلد، فأغوص فى احساس

من العجز. اخذت قرصا ثانيا لعله يأتى بمفعول افضل لكن موجات التخيلات كانت عاتية، قبل الفجر اضطررت لأخذ قرصا ثالثا لكن النوم كان مستعصيا و بعيدا جدا. عندما نهض اخى للذهاب الى العمل اخذت قرصا رابعا فى محاولة للنوم بأى شكل حيث ان جسمى بدأ يؤلمنى من الوجود فى السرير دون نوم. أخيرا، شعرت بالنوم يأتى فاستسلمت له، كانت هناك اصوات بعيدة تتكلم و يبدو ان احد كان يحاول ان يوقظنى او يحركنى من السرير لكنى لم اهتم انا الان نائم.

اخرجت رأسى من الشاشة، و التفت الى الرجل ذو الرداء الابيض، او هكذا قررت ان اسميه.

- "مامعنى هذا؟ لماذا تذكرنى بهذه الاحداث، لماذا تأتى بى الى كل هذه الذكريات الاليمة واحدة بعد الاخرى؟"

- "انا لم آت بهذه الذكريات، انت الذى تحملها فى داخلك، وتفكر بها طوال الوقت. ربما كانت احد الاسباب التى اتت بك الى هنا"

- "أعتقد انك مخطئ، انا لا احب هذه الاحداث و احاول ان انساها و انحيها من تفكيرى باستمرار"

- " هذا ليس معناه انها لم تشكل رؤيتك لأحداث حياتك وتلق بظلالها على تفكيرك وعلى كل تصرف تعمله فى ايامك. قبل ان تعترض، دعنى اعطيك مثالا: بعد المواجهة التى حدثت مع والدك يوم عيد ميلادك، هل تذكر ماحدث؟"

- "خرجت من الدار ولم اعرف اين اذهب... ثم وجدت امامى معلمة الرسم فى الشارع"

- "وهى عرضت عليك فرصة ذهبية، ان تستكمل تدريبك فى مدرسة الرسم الخاصة بها"

- "لم تكن إلا مدرسة متواضعة، طلابها من السيدات المتقدمات فى السن و تلاميذ المدارس الابتدائية" قلت متشككا فيما يقصدة بكلامه عن ما سماه "فرصة ذهبية"

- "لكن هى و زوجها فنانين غير عاديين، اعطوك كل ما يعرفونه من تكنيك فنى، وكذلك اتاحوا لك الفرصة

لتتعرف على معنى عميق للفن لم تدركه من قبل. ليس فقط تعلمت معهم اساليب فنية معقدة وعلى مستوى عال، بل ايضا من خلالهم ادركت من اين اتت فنون هذا البلد، وجذورها فى العصور السابقة، و كيف ان الكثير من فنانيهم العظماء عبروا عن ما وراء الحياة، وعن خبراتهم الروحية فى رسوماتهم"

- "نعم، لم يكن الدين عندهم طقوس و فروض، بل اكتشاف روحى عبروا عنه بمنتهى الحماس" قلت مكملا لكلامه وقد بدأت اتحمس للكلام عن موضعى المُفضل

- "هذا بالضبط ما ازعجك يوم الاحتفال فى الميدان الرئيسى فى بلدتك، ليس فقط انك اكتشفت عدم تقدير الناس لبعضها، بل لأنك احسست ان اتباع الديانات صاروا ممثلين، متصنعين، او فى افضل الحالات متورطين فى صراع من اجل اثبات انهم افضل من الآخرين"

- "كأن التدين اصبح مباراة و حلبة للمصارعة فى محاولة للربح و اثبات الافضلية، وليس اكتشاف لمعانى الحياة

وجمالها والتعبير عن هذه الاكتشافات فى صور جميلة تليق ببهائها الروحى" قلت مكملا كلامه وقد استغرقت تماما فى الاحاسيس الممتعة، مستعيدا للتناغم و الإنسجام مع شخص يفهم ما اقوله بل يكمله و انا افكر به.

- "هذا صحيح تماما، و لكن.." سكت للحظة ليتأكد انى سأستقبل ما سيقوله "لكنك لم تعط نفسك الفرصة لتتعمق فى فهم هذه الاكتشافات، بل مررت بها كمن يشاهد معروضات رائعة على رفوف المحلات وهو يجرى لأنه مشغول بشئ آخر. فقد كانت رغبتك فى اثبات نفسك امام عائلتك ومجتمعك طاغية. انت عشت فى خوف من الفشل طوال عامين، وباحساس عميق ان ماتعلمه لا يعنى شئ بالنسبة لأحد. منذ اليوم الذى تواجهت فيه مع ابوك، واهماله حتى ان ينظر الى الزينة التى صممتها لعيد ميلادك، كنت تشعر ان ما تتنتجه قد يكون بلا قيمة"

- "انا حاولت، لكن يبدو ان ما انتجته لم يكن جيدا بدرجة كافية ليلفت نظر الناس" قلت باحراج شديد، و قد تبخر

الاحساس بالانسجام بينى و بين الرجل ذو الرداء الابيض

- "هذا غير صحيح، المعلمة و زوجها اظهروا اعجابهم باستمرار"

- "هذا لأنهم كانوا يحاولون تشجيعى فقط"

- "اختك الكبرى كانت مُتيمة بكل ما تعمل وكانت تمر عليك فى مدرسة الرسم لترى انتجاجك"

- "اختى لاتفهم شئ فى الفنون بالمرة، الالوان فقط كانت تبهجها، والمدرسة كانت فى طريق عودتها من المستشفى" قلت وانا اشعر بنوع من الذنب و الرغبة فى الاعتذار لأختى

- "طلبة المدرسة كانوا يعتبرونك بطلهم و مثالهم الاعلى"

- "لو هؤلاء هم جمهور المعجبين بى فأقصى طموح لمستقبلى هو انتاج كتيبات تلوين للأطفال" قلت بسخرية متمررة

- "هدفى ليس اقناعك ان لك جمهور معجبين، بل اثبات ان حادثة المواجهة مع ابيك غطت على كل حياتك فلم تعد

قادر ان تستقبل الاعجاب و التشجيع، ليس لأن جمهورك متواضع المستوى، بل لأنك اصبحت لا تستطيع ان ترى الحياة بدون تأثير هذه الحادثة. فى بحثك عن وسيلة للرد عليها، لم تستطع ان ترى احداث الحياة الاخرى. لم يعد عندك فقط خوف من الفشل بل ايضا خوف من ان تعرض اعمالك حتى لا يحتقرها الناس"

- "ربما كان كلامك صحيح بالنسبة لموضوع تأثير المواجهة مع ابى" قلت باستسلام و انا افكر فى كلامه. القيت بنفسى على احد الكراسى الوثيرة و اغمضت عينى و انا احاول ان اصف مشاعرى خلال العامين الماضيين

- "انا فعلا عشت بخوف من الفشل بسببه. قضيت أياما كثيرة ابنى اراء و افكار جميلة عن الحياة، احلم بمشروعات يمكنها ان تنجح، لكنى اعود الى غرفتى، وفى ظلامها قضيت ليالى مُرتعب الا تتحقق اى من هذه الاحلام. بل انى احيانا تخيلت انى إذا فشلت فسوف اقدم على الانتحار قبل ان يُعَيرنى بأنى كنت مخطئ و فاشل.

كل يوم خلال هذين العامين، كنت تأتينى افكار لإنتاج فنى غير عادى، عندما اعمل على تنفيذها كنت ادخل فى عالم ساحر من الابداع ينسينى خوفى، بل ينسينى العالم بأكمله. لكنى لم اجرؤ ان اعرض انتاجى على اى شخص، لئلا يقول انه انتاج سئ او ليس جيدا بدرجة كافية، او حتى لا يلفت انتباه الناس فتتأكد وجهة نظر ابى. لذلك قررت ان انتظر حتى انتج شئ كامل بلا عيوب لا يستطيع كل من يراه إلا و ان يعجب به"

- "لكن كل من رأى اعمالك كان يُعجب بها"

- "كلها كانت اراء هواة، لم يكن لأى منها ثقل يثبت صحة وجهة نظرى امام عائلتى. الرأى المهم و الذى له ثقل هو رأى مثل لجنة المسابقة او شركات التصميم الفنى"

- "يعنى المهم اراء من يعطوا مقابل للعمل، سواء كان جائزة او من يدفعوا ثمناً لإنتاجك" قال و هو يستخدم ابتسامته المتحدية مرة اخرى

- "مع الاسف، نعم. إذا لم يكن هناك تقدير ملموس، فأنا

فاشل تماما فى نظر ابى و الباقيين، و هذا يفسر الآن صعوبة اليومين التاليين بعد المسابقة، فها هو اصعب كابوس ممكن ان اتخيله صار واقعا معاشا"

- "انا متعجب من هذا الكم من قيود الاحباط، والتفسير السودوى للأحداث، التى تمنعك من ان ترى شئ آخر خارج مشاعرك. انت تعلم انك تقدم فناً حقيقياً. الا يوجد عندك اى انتظار او توقع ان الموهبة الحقيقية ستثبت نفسها و ان الناس ستقدرها حتى لو لم يعطوا جوائز؟"

نجحت كلماته فى تهدأتى، و تحويل نظرى عن نفسيتى الملبدة بالغيوم لإتطلع الى الحديقة فى الخارج، كانت الشمس اخذت فى الغروب. قلت وانا اتأمل تدرج الوان الافق فى السماء

- "لا اعرف ماذا اقول لك. انا تعلمت اساليب و طرق عمل الفنانين هنا، مثل اى طالب فنون ملتزم، انا اعرف انى متمكن من ادواتى. لكن بالإضافة الى ذلك، انا فهمت من اين اتت روح الالهام لكثيرين من أعظم فنانيهم، ما

الذى كانوا يريدون قوله، وكيف رسم فنهم جزء هام من حضارة و تفكير هذه الامة. انا الغريب، بل ربما لأنى غريب، التقطت هذا المعنى، و تعجبت ان معظم الفنانين المعاصرين لم يلمحوه. ما اقوله يبدو كبرياء، لكن هذه هى الحقيقة التى اقولها لأول مرة، اقولها و كأنى اقدم اعتراف بذنب، و كأنى استحق العقاب لما اقوله. لكن هذا لم يعد مهم فهذه هى الحقيقة حتى وان لم تفهمنى، و هذا زاد من معاناتى بعد المسابقة، انى كنت اشعر بالظلم. انا افهم الفن اكثر من الفائزين فى المسابقة، و افهم انه اكثر من مجرد الوان جذابة"

- "انا غير مندهش من كلامك، بالعكس انا معك. بالنسبة للكثيرين من القدماء الفنون كانت جزء من العبادة، تصوير لما اثر فيهم من الجمال و القدرة الالهية، او قل تعبير عن اكتشافهم عمن ابدع هذا الجمال" قال وهو يشير نحو الافق و الغروب الذى كنت اتأمله من النافذة البانورامية امامى. "انظر الى لوحاتهم تجد انها تعبر عن حلول للمشاكل، او

عن الله الذى تدخل ليلهمهم الامل امام مشاكل زمانهم، الوجوه المرسومة كانت هادئة واثقة. لكن فى زماننا الحالى، روح المعجزة، واشراقة الامل الالهى امام المستعصيات، تتوارى امام انحصار فنانى هذا العصر فى ذاتهم، فى ضيقهم و مللهم الشخصى، وانشغالهم فى التعبير عن التمزق الداخلى للنفس. لا يروا ما يحدث خارجهم او حولهم. مايهمهم هو انا وما يحدث داخلى. انانية مفزعة، ولا يوجد من يسميها باسمها، بل كل من يعرى بلا خجل هذه القباحة الداخلية فى رسم وجوه تسكب بشاعة على الناظرين يعتبر فنانا جريئا"

كلامه كان معبر عن كثير من مشاعرى التى لم اعرف كيف اصيغها، لكن الاهم ان الكلام كان يغوص فى داخلى ليصفنى ويصف ما امر به، ولم اجد فى نفسى الرغبة فى الانكار و المراوغة

- "كلام دقيق، يقف على ارض صلبة، و يعرف كيف يقييم اعمال الآخرين بناء على معايير متعددة تغطى

جوانب عديدة من الفن و ليس حسب اساليب ميكانيكة" قلت وقد بلغ اعجابى بالعراف او قارئ الافكار الواقف امامى ذروته. اخذت امعن النظر فيه لأنه بدا اكبر جدا مما كان "لكن اليس من المفروض ان الفنان يعبر عن الواقع المعاش فى المقام الاول، وعن ما يشعر به وليس عن المثالية الغير معاشة" قلت مدافعا عن نفسى بطريقة غير مباشرة

- "كلامك صحيح، ولكن لا يجب خلط هذا مع من يعيش فى الشكوى و الرثاء للنفس ويسميها واقعية و تعبير عن الحقيقة"

- "لكن اليس هذا صدق مع النفس، اعنى ان تعبر وتصور حقيقة ما بداخلك حتى لو كان احباطا"

- "كم مرة تحتاج ان تكون صادقا مع نفسك بشان امر مُحبط قبل ان تغييره؟"

- "لا افهم"

- "اقصد اذا كان هناك وضع او موقف يسبب لك ازعاج

او الم، وانت تدركه و تعرفه و تعترف به، فلماذا لا تغيره؟"

- "الموضوع ليس بهذه البساطة فهناك امور تكون خارج السيطرة، او قرار تغيرها ليس بيدى وحدى"

- " فى رأيى، وصف الضيق و الاحباط، اوحجم الظلم، على انه تعبير صادق ربما يكون مقبولا كوضع مؤقت، نتيجة حادث مفاجئ. اما ان تحوّل هذا التعبير الى اسلوب حياة، و تعيش طول العمر تشكى او تتصرف بطريقة هدامة لحياتك، بدعوى ان ليس لديك اختيار فهذا منطق مقلوب و محاولة لتغطية التقصير بانه لست انت السبب فى تدمير حياتك بل الظروف او المحيطين بك، وما انت إلا ضحية"

- "هذا وعظ مُنفصل عن الاحساس بالناس وتقدير اوضاعهم و احاسيسهم، وانكار لحق الانسان ان يعبر عن مشكلته مع مجتمعة عندما يطغى عليه" قلت مدافعا فى محاولة للهروب من الخناق الذى يضيقة كلامه على فكرى

- "اذا الموضوع ليس مشكلة احباط داخلى، بل ضعف امام طغيان الآخرين. وهذه هى الحقيقة مع الكثيرين، انه لا توجد قوة للتغيير. صدقنى هذا ليس اتهام بالتقصير او معايرة. إذا كنت صادقا كما تقول، فلماذا لا تسمى الاحساس باسمه الحقيقى، و هو الضعف. ثم تطلب مساعدة"

- "اطلب مساعدة من؟" قلت بعصبية

- "المساعدة دائما موجودة ان لم تكن بحل المشاكل المحيطة الخارجية، تكون بمضاعفة القوة الداخلية"

- "هانحن نرجع للكلام الاجوف الخالى من المعنى، وللوعظ الغير مرتبط بشئ ملموس حولنا. من فضلك هل يمكنك ان تخبرنى بصورة محددة من اين تاتى بالمزيد من القوة الداخلية؟ اريد خطوات وامثلة واضحة اتبعها وليس فقط اقتراحات من الناس المستريحين" قلت و قد بدأت عصبيتى تزداد

- "لماذا تخطيت امكانية حل المشاكل الخارجية، فتنتقل

مباشرة للسؤال عن القوة الداخلية" قال مبتسما فى محاولة لتخفيف حدة الحديث

- "ارجوك لا داعى للمراوغة واللعب بالألفاظ. لا يمكن ان تتهمنى بعد كل ما عانيته بأنى مسؤول عن الوضع الحالى ثم تتوقع منى ان اكون مرحاً"

- "انا لم اتهمك، ولم اتوقع منك ما لا تستطيعه. لكن للإجابة على سؤالك "من اين طاقة التحمل؟"، فهى بحكم تعريفها طاقة داخلية او مختفية، فلا يمكن رؤيتها او لمسها، وعندك حق لا يمكن وصف خطوات محددة للوصول اليها"

- "إذا انت تعترف انها قد تكون شئ وهمى"

- "انا لم اقل ذلك، كل ما اقصده ان الحصول عليها يتوقف على حالة نفسيه و ضميريه للإنسان، و ليس خطوات عملية فقط. ورغم انها طاقة غير مرئية، لكن يمكن ان نرى تاثيرها و نتيقن من وجودها، وذلك عندما نشاهدها ونلمسها فى تصرفات واسلوب تفكير من يمتلكوها. فهم

عادة عندما يصفوها يتكلمون عن واقع داخلى معاش ويمرون به"

- "من واقع خبرتى المحدودة، ارى انك تتكلم عن نوعين من الناس. اما المثاليين المنفصلين تماما عن واقع المجتمع وعادة لا يعانون من مشاكله، خاصة المادية، او المتدينين الذين يتكلمون عن حلول المشاكل فى عالم بعد عالمنا، ولا يكفوا عن التهديد والوعيد انه ان لم نؤمن بهذا العالم الذى، لايرونه ولا نراه نحن، سينزل بنا العقاب. فهم لا يتركون لك اختيار، اما ان تقبل الدخول فى القالب، و تصير نسخة انسان بدون اى طاقة ابداعية شخصية، او تصير عدوهم وعدو الله"

- "من اتكلم عنهم مختلفين بعض الشئ، رغم انهم ليسوا ملائكة، لكن يمكنك تمييزهم بصفتين على الاقل. اولا، قدرتهم ان يقتسموا ما لديهم مع آخرين حتى المختلفين معهم. ثانياً، اليقينية و الحماس فى تعبيرهم عندما يصفون مصدر قوتهم الداخلية"

- "كل المتدينين، يتحولون الى مهاويس من الحماس عندما يبدأون الوعظ"

- "كلامك صحيح مرة اخرى، ولكن غير كامل، انت شخصيا اكثر انسان يستطيع ان يمييز التكلف و الافتعال عندما تسمعه فى الكلام ، او تراه فى التصرفات. ولمعلوماتك فإن معظم الناس مثلك. والحقيقة التى لا تنكر هى ان الصدق، قولا و فعلا، له تأثير عميق. و الدليل على ذلك نوعية الفنانين الذين آثروا فى حياتك، انت بنفسك عبّرت عن تأثيرهم الحقيقى عليك"

- "سبق وقلت لك ان هذه النوعية من الفنانين هى مثلى الاعلى، و اقصى ما احترمه فى هذه الحياة"

و لكن..." سكت لحظة كعادته عندما يريد ان يعطى اهمية لما سيقوله "هل استطعت ان تصل الى نفس النبع الذى استقى منه هؤلاء الفنانين العظماء؟ ام انك فقط فهمتهم وعشت مثل كثير من الفنانين المعاصرين، فى حدود الضيق الشخصى؟"

فجأنى السؤال، رغم انى كنت افكر فيه فى نفس اللحظة
- "مالذى يجعلك تفكر انى لم اصل الى ماوصلوا اليه؟" سألته لا لأنتظر اجابة بل لأعطى نفسى مساحة من الوقت للتفكير فيما يقول
- "كلامك يؤكد انك اكتشفت ان هناك عنصرا روحيا كان مصدرا للابداع و جمال التعبير، و هذا صحيح. و لكن يبدو لى انك لم تلمس او تمتلك هذا العنصر الروحى الكامن فيما وراء الطبيعة كما لمسوه هم. لم تنفذ اليك العناية الالهية المتدخلة فى حياتهم الشخصية والتى عبروا عن جمالها فى لوحاتهم"
عاد فكرى يلهث وراء كلماته فى محاولة لملاحقة معانيها، اشعر بصداها يحرك صورا و اسئلة سألتها لنفسى لكنى لم استطع الاجابة عليها. وعندما لاحظ انى لا اعلق استأنف كلامه
- "من اختبر التدخل الالهى فى مسار حياته، وليس فقط فى الحياة من حوله، يعى جيدا "انه ليس بالخبز وحده يحيا

الانسان" و يدرك ايضا انه ليس بالراتب الشهرى وحده يحيا الانسان، وليس بإعجاب الناس وحده يحيا الانسان، وليس بالنجاح الاجتماعى وحده يحيا الانسان.." قاطعته لأول مرة و انا اسبقه لما يريد استنتاجه

- "انا فاهم هدف الكلمات التى تتكلم بها، ومدرك ان كثيرين منهم كانوا احرارا، بالرغم من الضغوط المادية والمعنوية، واستمروا فى الإبداع حتى فى احلك الاوقات. لكنى انا كنت اظن انهم اشخاص مُثابرين، واثقين من مواهبهم، و قادرين على تمييز العناية الالهية فى الحياة حولهم. لكن ... لأكون صادقا معك انا لم اشعر ابدا بهذا التدخل فى حياتى ليؤثر فىّ بالطريقة التى تصفها. هل كنت واهما فى انى فهمتهم؟ او انى ترجمته بطريقة خاطئة؟ لا اعرف... انا مرتبك و اشعر انى مشوش" امسكت برأسى فى محاولة للتركيز

- "اعتقد انك لا تحتاج الى مزيد من الشرح لتفهم، انت محتاج ان ترى و تشعر بنفسك بما مروا فيه" قال هذا وهو

يجلس على المكتب و يفتح الكومبيوتر. أعد الشاشة بسرعة ثم ترك مكانه لى. عندما جلست فوجئت انه يتجه نحو الباب الذى انفتح تلقائيا عندما اقترب منه

- "انتظر، الى اين ذاهب؟"

- "اعتقد اننا وصلنا الى نهاية هذا الوقت، الباقى سيكون فى يدك انت وحدك"

- "انتظر من فضلك، انا لا اعرف ماذا يجب ان اعمل هنا وحدى. صحيح انى اشعر براحة فى هذا المكان، كثير من الامور الغامضة و المزعجة فى حياتى اصبحت واضحة لى، لكنها غير مترابطة و لا استطيع ترتيبها وحدى. ثم كيف حدث كل ما يحدث الآن؟ من انت، و كيف اتيت بى الى هنا؟ و ما الذى يجب ان اعمله؟ احتاج تفسيرات كثيرة لا يمكن ان تتركنى بدونها"

- "هذا المكان ... هو تحقيق لكل احلامك و الحل لمشاكلك .... من وجهة نظرك" قال وهو يخطو الى منتصف الغرفة مشيرا الى محتوياتها "الغرفة الانيقة

الواسعة بدلا من الغرفة الضيقة، الاثاث الفاخر المنظم بدلا من عشوائية الترتيب، النوافذ الواسعة بدلا من الضيقة ذات القضبان، الحديقة المترامية المحيطة بالدار بدلا من البيوت المتلاصقة، الهدوء بدلا من الضجيج. حتى انا،... انسان يفهمك و يناقش ويسمعك بدلا من المقاطعة والصياح و الصراخ. انسان حكيم له خبرة الشيوخ، لكنه فى مثل سنك و يتكلم لغتك. بإختصار هنا عالم كامل من وجهة نظرك. **كل هذا ... مُنح لك ..** لا ليحل مشاكلك، بل ليثبت لك انه مجرد اطار خارجى، او غلاف جديد يمكنك ان تضع حياتك داخله بدلا من الغلاف المزعج الذى عشت فيه. ولكنه ... ليس الاجابة لأسئلتك الداخلية ولن يستطيع ان يغيير من حالتك"

- "إذن، ماذا أعمل؟ كيف سأصل للإجابات او اغير حالتى؟...." سألته و انا افكر فى فى معنى كلمته " **كل هذا مُنح لك"**

- "الق نظرة على المشهد الباقى، و بعده ستتحدد كثير من

الاشياء و ستفهم معنى ما اقوله" قال هذا و رفع يده بتحية وهو يخطو للخارج فأُغلق الباب خلفه. القيت نظرة على المكان وانا فيه وحدى، بدا مريحا من كل جانب. وفكرت هل فعلا يمكنى ان ابقى هنا الى الابد؟ دون ان ازعج نفسى بالبحث عن اجابات؟ لما لا؟ فها انا فى المكان والوقت الذى تحققت فيهما كل احلامى. اعطيت نفسى لحظة فى محاولة للإستمتاع بمذاق هذه الحقيقة و اغمضت عينىّ لأتشبع منها. لكنى لاحظت شئ غريب داخلى، انه لا توجد هذه البهجة و الاحساس بالسعادة و الانتشاء الذى تخيلت انى سأشعر بهم. المفاجأة الاكبر انى شعرت انه لايمكننى ان اعيش هنا الى الآبد. - "مفاجأت هذا اليوم لاتنتهى" قلت لنفسى متسألا "ماذا اريد اذن؟" فوجئت ان الاجابة كانت حاضرة، انا اريد ان اصل الى ما وصل اليه فنانين حقيقيين من قبلى، اريد ان اكتشف ما اختبروه، ان ارى بنفسى حلولا و اجابات كما حدث معهم، وأن اعبر عنها بكامل تألقها، فيخفت امامها الواقع المرير، الى ان

يتغير يوما بواقع جديد. ضحكت من معنى الاكتشاف ومن الرغبات المتضادة فى داخلى.

- "يبدو انه لا مفر من المواجهات" قلت لنفسى هذه الكلمات و انا اضحك بصوت عالى لأول مرة منذ مدة طويلة، اغمضت عينى و اقتربت من الشاشة بنوع من التوقع و الحماس.

فتحت عينى لكنى لم ارى شئ هذه المرة، كل ماحولى عبارة عن ضباب او كأنى واقف بين السحاب. برغم ان السحاب كان ساكنا كانت هناك نسمة هواء بارد تنساب على جسمى كله شعرت معها انى عار تماما من كل شئ، لكنى لم اخجل ولم اخاف. البرودة لم تكن مزعجة، كانت مثل نسمة الهواء الخفيفة التى توجج اشتعال فتيلة مدخنة، و شعرت بنوع من التوهج يسرى فى كيانى، يشبه الى حد كبير الذى كنت اشعر به عندما اندمج فى عمل فنى، هذا التوهج الذى يبتلع الكيان من الاثارة والانفعال. لكن الآن اشعر به بصورة جديدة، كان اضعاف ما شعرت به من

قبل.

- **"صادق ..... يا صادق"** سمعت صوت هادئ رقيق ينادينى، لم اعرف اذا كان يأتى من حولى او من داخلى ... وفجأة تذكرت اسم الفيلم الذى كنت ابحث عنه طوال اليوم. نعم، انا اسمى صادق، لم اسمع احد ينادينى بهذه الطريقة فى كل حياتى. والصوت الذى ينادى جعلنى اشعر انى لست وحدى بين الضباب. الصوت كان به دفء احتوانى بداخله، انا فى حالة لا يمكنى وصفها من الاحساس بالإكتمال والرضا و الامان و الفرح و المعنى و...و كل ما هو رائع وايجابى.. هل هذه هى السعادة؟ العجيب هو انى فى هذه الحالة بدون ان يكون هناك مايبررها، فلا يوجد شئ، ولا مشروع، و لا مسابقة، وانا لم اعمل شئ لأصل الى هذه الحالة

- **"انا دعوتك بإسمك ... اعرف كل ماحدث معك ... لا تخاف... انا هنا لإنقذك منه ... فلنبدأ من جديد"** لا اعرف كيف اصف ما اشعر به، فلا توجد كلمات تعبر عن هذه

المشاعر، لكن الخوف من الفشل و المعايرة و الاحتقار، هذه الاحاسيس الذى مزقت حياتى، و كانت ثقلا مستمرا يجعلنى اتنفس بصعوبة، فجأة اختفت... نعم اختفت.. و انا اتنفس بحرية. افتش عنها ولا اجدها... اريد ان اصرخ فرحا، اريد ان احتضن و ان اقبل من انقذنى منها. اكتشفت ان هناك من يلتفت نحو تعبى و الآمى ويستطيع ان يساعدنى، شعرت بحب جارف... نعم لأول مرة اشعر ان هناك من يحبنى بدون اسباب وبدون شرح و بدون ان اعمل شئ. الاكتشاف يملئنى بالفرح... لدرجة احسست معها ان كيانى لا يحتمل المزيد من هذا الاحساس. اردت ان امسك هذه اللحظة فلا تمر بل تبقى دائما. كنت اعلم انى بين يدى صانعى، الذى يعرف كيف يصل بى مكان الاكتمال، هو فقط من يعلم كيف يصل بى الى هذه اللحظة من ملء الحياة. لم افهم كيف حدث هذا، لكنى كنت اشعر انى وجدت الطريق، وبداخلى احساس انى لن افقده بل سأسير فيه الى نهايته

- **"من اليوم، لا تعود تطلب شئ من الناس ... بل تعطى لهم"** الكلمات ايقظت شئ داخلى ... شعرت بقوة .. بثقة داخلية .. نفسى تنفض من عليها غبار الضعف و تسوُّل الاهتمام، لا احتاج هذا... قوة الحياة تزداد و تفور داخلى، استسلمت لها بدون مناقشة، فشعرت ان هناك نهر من الحياة يتفجر من باطنى يريد ان يندفع نحو الآخرين ويحتضنهم، و شعرت ان جسمى كله يرتعش من شدة التدفق... انا حر من الاثقال و القيود.

اخذ الضباب يتبدد من حولى، بدأت اهبط لاستقر راقدا على الارض فى مكان بدا مثل الحديقة ذات العشب الابيض و الاشجار البيضاء و الخضراء، لكن منظر الاشجار كان غير واضحا. و رأيت من وسط الضباب وكأن احد الاشجار تتحرك و تميل نحوى و منها سمعت صوت ينادى "صادق ... صادق" لم يكن نفس الصوت الهادئ العميق، بل صوت مألوف لى

- "صادق ... صادق" فتحت عينى و الارتعاش يهدأ

تدريجيا، لكن البرودة استمرت. تحولت الحديقة الى شكل غرفة و انا انظر الى سقف ابيض، دخل وجه بينى وبين السقف، كان وجه اختى وهى مازالت تنادى بنوع من الانفعال "صادق ... صادق" احسست بها تحتضنى وتجهش بالبكاء بصوت عالى.

- "اين انا؟ ماذا يحدث هنا؟" قلت وانا اتلفت حولى لأتفحص الغرفة الباردة الغريبة عنى

- "انت فى المستشفى، فى غرفة العناية المركزة" كانت المتكلمة هى معلمة الرسم التى كانت تقترب لتقف بجانب السرير الذى انام عليه، كانت تبكى هى الاخرى

- "فى المستشفى؟ كيف اتيت الى هنا؟" قلت وانا انظر الى ثوب المستشفى الذى البسونى اياه

- "انت اخذت جرعة زائدة جدا من الدواء المنوم الذى اعطيته لك" قالت اختى من وسط دموعها "كنت سأقتل نفسى من الاحساس بالذنب كلما تذكرت انى اعطيته لك بيدى"

- "الدواء له تأثيرات جانبية، واحدة من التأثيرات النادرة جدا انه من الممكن ان يسبب الدخول فى غيبوبة" اكملت معلمة الرسم كلمات اختى

- " انا كنت فى غيبوبة؟ منذ متى؟"

- "حوالى اربعة و عشرون ساعة، كان شئ رهيب بالنسبة لنا، اتمنى ان لا يكون كذلك بالنسبة لك" قالت المعلمة وهى تحاول الابتسام من وسط دموعها

- "اعتقد انهم كانوا أهم و اسعد اربعة و عشرين ساعة فى حياتى" قلت و انا ابتسم بضعف

- "لا تقل هذا الكلام، العائلة كلها فى الخارج فى حالة فزع عليك" قالت اختى مؤنبة

- "ساشرح لكِ ما قصدته فيما بعد"

- "لماذا فعلت هذا، الاطباء فى المستشفى يظنون انك حاولت الانتحار" قالت المعلمة

- "هذا غير صحيح، الموضوع انى لم استطع النوم لمدة يومين و كنت محتاج للنوم بشدة"

- "لماذا لم ترد على مكالماتى، كان عندى امور هامة لأخبرك بها..."

- "موضوع المسابقة لم يعد يهمنى، و ليس له نفس التأثير علىّ الآن" قاطعتها برفق

- "الموضوع لم يتعلق بالمسابقة، بل بشركة التصميم والدعاية التى اخبرتك عنها"

- "ماذا يريدون؟" قلت بدهشة

- "ماذا تعتقد انهم يريدون منك؟" قالت بتهكم "طبعا يريدون ان يعرضوا عليك العمل معهم"

- "غير معقول، و ماذا عن الفائزين فى المسابقة"

- "العمل شئ و المسابقة شئ آخر. الفائزين بالنسبة للشركة يعتبروا من افضل الاختيارات، وهذا ليس معناه انهم الاختيارات الوحيدة. فى حالتك، مدير الشركة رأى ان المزيج الذى قدمته فى تصميماتك بين الفن الكلاسيكى والاتجاهات الحديثة اكثر فائدة لهم. لذلك قرر ان يعطيك انت العمل"

- "شئ لايصدق، هذه معجزة" قلت و قلبى يقفز من الفرح فى داخلى

- "كنا نقول لك ان هذا سيحدث معك يوما ما، نظرا لحجم موهبتك و اخلاصك لعملك، لكنك كنت كمن لايسمع" قالت وهى تضحك

- "انا فعلا كنت لا اسمع و لا ارى، لكنى الآن الوضع تغيير و اعتقد انى ارى بوضوح"

- "طبعا، العمل فى الشركات العملاقة يغيير الناس بين يوم و ليلة" قالت مستمرة فى مداعبتها

- "الموضوع لايتعلق بالعمل فى الشركة، و ان كنت اتوق اليه جدا، و كنت اظن انه الحل لكل المشاكل. لكنى اكتشفت ان هناك امور اخرى اهم وتأثيرها اعمق"

- "يبدو ان الاربعة وعشرين ساعة الماضية كان لهم تأثير عليك" قالت المعلمة و هى تتأمل ملامح وجهى

- "نعم، انا لست نفس الشخص، و اعتقد ان امامى الكثير لأفهمه عما حدث معى"

- "الطبيب قال لا يمكنا ان نبقى فى العناية المركزة اكثر من عشر دقائق" قالت اختى و هى تنظر الى المعلمة

- "نعم، يجب ان نتركه ليستريح. كذلك يجب ان نطمئن باقى العائلة فى الخارج انه بخير"

تركونى وحدى فى الغرفة الباردة، و وجدتنى اشكر الله على فرصة العمل التى لم تضيع، لكنى فوجئت انى لا افكر فيها بل فى الكلمات التى سمعتها بين السحاب والتى لم اريد ان تضيع منى أو انساها "**انا دعوتك بإسمك... اعرف كل ماحدث معك ... لا تخاف... انا هنا لإنقذك منه .. فلنبدأ من جديد....من اليوم، لا تعود تطلب شئ من الناس ... بل تعطى لهم**" تذكرت كل كلمة ورددتها مرات متتالية. مع عودة الكلمات استرجعت فيضان المشاعر التى صاحبتها، ووجدتنى اقول "نعم، ألآن اعرف من انا، لأنى اعرف من انت... انت من يعطى الحرية... انت من يعطى بداية جديدة"